أعلام الشعراء العباسيين

1. بشار بن برد:

ولد بشار بن بُرد بن يرجوخ بالبصرة في اوائل العقد العاشر من القرن الاول للهجرة. وجدّه يرجوخ من طُخارستان ممن سباهم المهلب بن ابي صفرة والى خراسان، ومن أجل ذلك نشأ ابنه بُرد على الرّق فاصبح مولى لبني عُقَيل. وقد نسبَ نفسه من جهة أمه إلى الروم، إذ يقول:

وقيصرٌ خالي إذا عددتُ يوماً نسَبي

فقد كان فارسي الاب رومي الام، وقد ذكرها حماد عجرَد في بعض أهاجيه باسمِ (غزالة)، وقد ولدتهُ أعمىً فما نظرَ الى الدنيا قطّ، وفي ذلك يقول:

عميتُ جَنيناً والذكاء من العَمَى فجئتُ عجيبَ الظنِّ للعلمِ موئلا

وحدَّدت آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره، فاتجه الى المساجد وإلى مرْبد البصرة ينهلُ من حلقات العلم والشعر. ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه وكان الهجاء حينئذٍ يضطرم بين جميع الشعراء فكان الهجاء أول موضوعٍ نظمَ فيه. ويقال إن أباه كان يضربه بسببه ضرباً مبرِحاً لكثرة ما يشكو الناس منه. واشتد ببشار طموحه إلى إتقان اللغة العربية، فاتجهَ نحو البادية، فأقامَ فيها فترةً ساعدته على اتقانها. وعادَ الى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم، كما يكثر من النظم في المديح و غيره، ومن أقدم مدائحه ما نظمه في عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز، وكان يشيد به وببيانه طويلاً، ويحضر مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع من يعتنقون مذاهب الثنويّة المجوسية والدهرية الهندية، وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس ومايماثلها من مجالس المتكلمين شيء من الفلسفة والمنطق. وتتابع منه ما يشهد على إلحاده من مثل قوله يشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الارض والطين:

الارضُ مظلمة والنارُ مشرقةٌ والنار معبودةٌ مذ كانت النار

وتمادى يفضِّلُ إبليس المخلوقَ من النار على آدم المخلوق من الطين، قائلاً:

إبليسُ أفضلُ من أبيكُم آدم فتنبَّهوا يا معشرَ الفُجّارِ

مضى بشار يعلن زندقته مصرّحاً بأنه لايؤمن إلاّ بالعيان وما شهده الحس. فهو لايؤمن بجنةٍ ولانارٍ ولا ببعثٍ ولا بحساب. ويتغنى بشعوبيته ويفخر بقومه الفرس فخراً مسرفاً. ويمضي في غزله الفاجر وكان كلُّ شيءٍ فيهِ ينفِّرُ المرأة، إذ كان قبيح المنظر مجدور الوجه جاحظ العينين وقد تغشَّاهما لحمٌ أحمر، ولعلَّ هذا القبح ونفور النساء منه هو الذي كان يستثير عنده الغريزة النوعية ويدفعه إلى الافراط من غزله المكشوف. وفي هذه الاثناء يصطدم بحماد عَجرد وتنشب بينهما معركة هجاء شديدة. ويتوفّى المنصور ويخلفه المهدي الذي كان متشدداً في شئون الدين، حينئذٍ ينتهي اليه أن بشاراً يفسد النساء والشباب بغزله الفاضح، فأمره أن يكفَّ عن ذلك، وكان ذلك يؤذي الخليفةَ منه إذ كان يراه لايكفُّ عن

الغزل، وترامت إليه زندقته وما يغرِقُ من مجون، حتى يتعقب المهدي الزنادقة ويقتل منهم خلقاً كثيراً، فيأخذ بشار في رثاء أصدقائه الذين قتلوا على الزندقة، ويهجو المهدي ووزيره يعقوب بن داود هجاءً مقذعاً. ويقدِمُ المهدي إلى البصرة فيشهد أمامه شهودٌ موثقون بأنَّ بشاراً زنديق، حينها يأمر بضربهِ حتّى الموت.

تطور أغراضه الشعرية

إن طبيعة بشار لم تكن بسيطة ولا ساذجة، بل كانت معقدة، فقد كان فارسي الاصل، وورث عن الفرس حدة في المزاج وولد أعمى لا يبصر وكان لذلك يحس بالمرارة، وتربى في مهدٍ عربيٍّ ، فأتقنَ العربية وأخذ يختلفُ إلى حلقات المتكلمين بالمسجدِ الجامع يستمع إلى محاوراتهم لأصحاب الملل والنِّحَل والاهواء المختلفة، وكان ذلك كله سبباً في أن يحدث تشويش في فكره وأن تمتلئ نفسه بالشكِّ والحيرة، فتحوّل زنديقاً يبغض الدين الحنيف، حتى إذا نجحت الثورة العباسية تحوَّلَ شعوبياً يبغض العرب والعروبة وكانت بيئته تكتظُّ بالجواري والقيان، إذ كان ضريراً لايرى الجمال ببصره، إنما يحسه بلمسهِ ويدهِ، فاختلط بالجواري وتغزّلَ فيهنَّ غزلاً حسياً ينبو عن الذوق. وما من شكٍّ أنَّ بشاراً كانَ ملحداً زنديقاً يكفر بالعرب، ومع ذلك اضطُرَّ اضطراراً حين عاشَ شعرهم أن يتمثَّلَ أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم وخواطرهم، فقد مضى يزاوج بين الماضي والحاضر، يتلقّى الماضي ويحياه، وأيضاً يتلقّى الحاضرَ ويحياه، وبذلكَ وصلَ بين الحاضر والماضي برقيهِ العقلي وحياته الحضارية وصلاً خصباً. وعليه فإنه احتفظ للشعرِ بأصوله التقليدية، ومضى يطوّرُ في أغراضه ومعانيه.

والمديحُ أهم غرضٍ وصلَ بشارً بالتراث القديم، فقد حافظَ فيه محافظةً شديدةً على سننهِ الموروثةِ، سواءً من حيث جزالة الصياغة ورصانتها ومتانتها، أو من حيث المنهج الذي سارَ عليه القدماء، إذ كانوا يقدمون بين يديه وصف الاطلالِ والنسيب والغزل ووصف البعير أو الناقة ورحلتهم عليها في الصحراء مستطردين إلى وصف مشاهدها الطبيعية وما يجري فيها من حيوان. ثم يخرجون من ذلك إلى المديحِ بمآثر الافراد والقبائل. كل ذلك احتذاهُ بشار في مقدمات كثيرٍ من مدائحه، أما معانيه التي ساقها في وصف الخلفاء والولاة وجدناه يخلع عليهم الشيَمِ الرفيعةِ من الكرمِ والمروءة والشجاعة. لقد حاول بشار من خلال هذا الصنيع النفوذَ الى معانٍ وصورٍ جديدةٍ يستلهم فيها حسَّه المرهف وعقله الدقيق وذوقه الحضاري المترف حين يعمد إلى المحاكاة المسرفة للقدماء، ومن ذلك ما نجده في بائيته التي مدحَ بها يزيد بن عمر بن هبيرة، والتي استهلها بقوله:

جفا وِدَّهُ فازورَّ أو ملَّ صاحبُهْ وأَزْرَى به أنْ لا يزالُ يُعاتِبُه

فإننا نجده يستهلها بالنسيب ووصف سُرى الليلِ على بعيره وسط الصحراء المقفرة، ويستطرد إلى وصف حمار الوحش وأتنه وما مرَّ بها وبه من أيام الربيع المنعشةِ ثم ما سقطَ من أيام الصيفِ اللافحةِ التي أوقدت العطش في صدور الأتن وحمارها، ويمضي إلى مديحِ يزيد فيوغل في فخرٍ شديدٍ بقيسٍ قبيلتُهُ التي كان لها ولاؤه، وهو في كل ذلك ينزعُ منزعَ القدماء حين كانوا يمدحون سادة عشائرهم

فيفخرون بها. لقد أدخلَ في نسيج قصيدته خيوطاً جديدة، وهي واضحةٌ في نسيبهِ إذ تحدث عن الصداقةِ والصديق، وكأنَّهُ يستلهم ما كتبه فيهما ابن المقفع بكتابه (الادب الكبير) كما يستلهم الكلاميين في قوة البرهان والحجة، فإذا هو يقول:

إذا كنتَ في كل الامورِ معاتباً صديقَكَ لم تلقَ الذي لا تعاتبه

ويمضي في وصف مشاهد الصحراء وصفاً حيّاً، حتى إذا انتهى منه فخرَ بقيسٍ مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسٍ شديد، يقول:

إذا الملكُ الجبَّارُ صعَّرَ خدَّهُ مشيناً إليه بالسيوف نعاتبه

وكنا إذا دبَّ العدوُّ لسُخطنا وراقبنا في ظاهرٍ لا نراقبُه

ركبنا له جهراً بكل مثقَّفٍ وأبيضٍ تستسقى الدّماءَ مضاربُه

وجيشٍ كجنحِ الليلِ يزحفُ بالحصى وبالشَّوكِ والخَطِّيِّ حُمرٌ ثعالِبُه

غدونا له والشمس في خِدرِ أمها تطالعنا والطلُّ لم يجرِ ذائبه

بضربٍ يذوق الموتَ من ذاقَ طعمهُ وتدركُ من نجّى الفرار مثالبُه

كأنَّ مثار النَّقعِ فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبه

بعثنا لهم موتَ الفُجاءة إننا بنو المُلكِ خفَّاقٌ علينا سبائبُه

والفخر بالبلاءِ في الحروب قديم، غيرَ أن جديداً واضحاً يداخلُ معاني هذه الابيات، وهو يُرَدُّ من بعض الوجوه إلى مزاجِ بشار الفارسي الذي أدّى بهِ إلى المبالغة ومجاوزة القصد، كما يُرَدُّ إلى محاولة الابداع في التصوير، ويُروى أنَّ الأصمعي وقفَ متعجباً أزاء البيت السابع وأنه قال: " ولدَ بشار أعمىً فما نظرَ إلى الدنيا قطّ ، وكان يُشبّه الأشياء بعضها ببعضٍ في شعره فيأتي بما لايقدر البُصَراءُ أن يأتوا بمثله" وكان يعتمد في ذلك على ذكاء حاد جعله يستغلُّ ذاكرتَه من صور الاقدمين وأخيلتهم استغلالاً فاق فيه المبصرين من حوله، وكأنه كان بذلك يريد أن يثبت أنه على الرغم من آفته يستطيع أن يؤلف الصور الحسية بل أن يبدع في تأليفها.

ولم تؤثر لبشار مراثٍ كثيرة، وربما مرجع ذلك إلى أنه كان منغمساً في اللهو وأن نفسه لم تكن مفطورة على الحزن، ومع ذلك فإننا نرى الموت يهزُّ نفسه هزّاً حين فقد ابنه محمداً، وفيه يقول:

أُصيبَ بُنَيَّ حين أورقَ غُصنُهُ وألقى علىَّ الهمَّ كلُّ قريبِ

ونراه يحزن حزناً عميقاً على أصدقائه من الزنادقة الذين فتك بهم المهدي فتكاً ذريعاً وكأنما رأي فيهم مصيره الذي ينتظره، وروى له أبو الفرج الاصفهاني ميميةً رثى بها خمسةً من أصدقائه إذ نراه فيها جزعاً أشدَّ الجزع، وفيها يقول:

كيف يصفو لي النعيم وحيداً والأخلاّءُ في المقابرِ هامُ

واشتهر بشار بالتفنن في الغزل وقد رققت الحضارة حِسَّهُ وفتحت له في الغزل أبواباً من المعاني والصور التي تعكس أثر البيئة وما شاعَ فيها من ترفٍ مادي وشعور رقيق حاد، ومما يمثل ذلك قوله:

يا ليلتي تزدادُ نُكرا من حُبّ منْ أحببتُ بِكرَا